كتابك

(٣٦)

أحمد حسن الباقورى

العودة إلى الإيمان



دار المعارف

كتابك ٣٦

رئيس التحرير أنيس منصور

احمد حسن الباقوري

العودة إلى الإيمان

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه كلمات موصولة الأسباب بالإيمان ، أستجيب بها لرغبتك – جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة — وأنا أرجو من وراء ذلك خيراً كثيراً لدنيا المؤمنين : ذلك أن أمتنا لم تكن قط محتاجة إلى حديث بصير عن الإيمان حاجتها إليه فى أيامنا هذه ، والإلحاد قد استغلظ عوده بما مع الملحدين — قادة ودعاة — من خطط محكمة ، وثقافات متجددة ، وقدرات مستبصرة تحاول استغلال الأحداث فى مصلحة المعسكر الذى يولون وجوههم شطره ، ويربطون مضيرهم إلى مصيره ، وكلمتهم متحدة وشملهم جميع ، على حين أن المؤمنين يتربص بعضهم ببعض ، ويتنكر بعضهم لبعض ، ويتآمر بعضهم على بعض : فإذا كلمتهم مختلفة ، وإذا شملهم صديع ، وإذا هم أحق بالكلمة العربية العريقة ممن قيلت فيهم : «إن دام هذا الحال يا مسعود لا جمل يبقى ولا قعود» .

أحمد حسن الباقورى

الإيمــان

ولعل أول ما ينبغى أن نبدأ به فى هذا الموطن هو أن بناء كلمة (الإيمان) من الهمزة والميم والنون متضمن معنى الأمن ؛ فالذى يؤمن بالله حق الإيمان ويعبده حق العبادة لابد أن يظفر بالأمن ، وأن ينجو من الخوف على ما تقرر ذلك الآية الشريفة من سورة قريش : «فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف» .

وإذ كان – جل ثناؤه – يهب الأمن لعباده الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه — كان من أسمائه الحسنى اسم (المؤمن) : بمعنى واهب الأمن ومعطيه ؛ كما فى الآية من سورة الحشر : «هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن . . وهو العزيز الحكيم» (١)

ويتصل بهذا الباب اتصال تكملة وتوضيح أن يكون الأمن جزاء الإيمان بالله إيماناً خالصاً من شوائب الشرك به جل ثناؤه ؛ كما فى الآية الشريفة من سورة الأنعام : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٢) » .

---

(١) آيتا : ٢٣ و ٢٤ .

(٢) آية : ٨٢ : وقد فسر رسول الله – الظلم – فى هذه الآية بالشرك كما فى آية ١٣ من سورة لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) .

فقد جعل — سبحانه — الأمن فى هذه الآية جزاء للإيمان الخالص به ، كما جعل الإخافة والتجويع فى الآية من سورة النحل جزاء على الكفران بأنعمه فذلك قوله :

« وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) .

وربما أيد الصلة بين الإيمان والأمن أنك ترى الفقهاء باللغة يضعون الإيمان فى مادة الأمن ، كما فعل الإمام الأصفهانى فى المفردات ، وكما فعل ابن منظور فى اللسان ، ثم روى الحديث النبوى الشريف : « النجوم أمنة السماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابى ، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون ، وأصحابى أمنة لأمتى ، فإذا ذهب أصحابى أتى الأمة ما توعد » .

وأحسب أنك تتطلع إلى بعض التفصيل لهذا الإجمال فى الحديث الشريف ، وذلك يحتاج إلى وقفات ثلاث : أولاها حول أمن السماء ، وثانيتها حول أمن أصحاب النبى بحياة النبى ، وثالثتها حول أمن الأمة بحياة الراشدين من الصحابة :

فأما ذهاب أمن السماء : فالمراد به انشقاقها انشقاقاً يؤذن باختلال نظام الكون ؛ كما فى الآيات من سورة الرحمن ابتداء من الآية الكريمة :

---

(١) آية : ١١٢ .

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان(١) . . إلى آخر السورة » .

وهذه الآيات من سورة (الرحمن) المدنية قد بينت الإجمال فى السور المكية : (الواقعة) و (الانفطار)و (الانشقاق) ، كما هو الشأن دائماً فيما ينزل من آيات الكتاب الكريم بالنسبة إلى ما سبق نزوله ، فإن اللاحق مبين للسابق : إما بالتفصيل عن إجمال ، أو بالتقييد عن إطلاق ، أو بالتخصيص عن تعميم .

وخلاصة ما اشتملت عليه هذه الآيات وأمثالها على جهة الإجمال أو على جهة التفصيل ما يتأوله أهل العلم من أن ثمة نجماً يقرع الأرض قرعاً (٢) ويرجها رجاً ويصخها صخاً(٣) ، فإذا هى غبار دقيق متفرق فى الفضاء ، وعندئذ يختل ما يسمى فى عرف العلماء بسنة الجاذبية العامة ، فتتناثر الكواكب فى كون الله العظيم تناثراً يدخل به العالم فى طور جديد هو المراد بالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا ، كما قرر ذلك السيد رشيد رضا ذاكراً أن كثيراً من علماء الهيئة والفلك المعاصرين صرحوا بأن خراب العالم على هذا النحو ، وبهذه الأسباب – هو أقرب النظريات العلمية لقيام الساعة ومجيء اليوم الآخر إيذاناً بالحساب والجزاء .

هذا . وأما ذهاب أمن الصحابة وإتيانهم ما يوعدون — فالمراد به

---

(١) آية : ٣٧٥ .

(٢) القرع : الدق والضرب .

(٣) الصخ : الضرب بشىء صلب على حجر ونحوه .

تلكم الفتن التى نجمت قرونها بينهم بعد رحيل رسول الله عن هذه الدار ، إذ كان قد انصدع صفهم ، وتفرقت كلمتهم ، واستحل بعضهم من بعض ما لا يستحل الأخ من أخيه ، فضلاً على أن يكون من أصحاب رسول الله !

هذا . **وأما ذهاب أمن الأمة وإتيانها ما توعد** — فالمراد به أنه إذا ذهب أولئك الأخيار من الراشدين الخلفاء بلقب الصحبة الشريفة فإن الأمة – حينئذ تشتبه عليها الأمور ، وتعمى بين يديها السبل إلى الحق ، فإذا هى فى حال من الاضطراب لا تقوم بتجليتها إلا تلك الكلمات المبينة فى لسان أمير المؤمنين (علىّ) كرم الله وجهه : «والله لتبلبلنّ بلبلة [1] ، ولتغربلنّ غربلة ، ولتساطن سوط [2] القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ! » .

وقد وقع ما توقعه أمير المؤمنين حتى كان شأن أصحاب رسول الله بعد رسول الله كشأن الأمة بعد الراشدين من أصحابه : كلاهما شأنه شأن السماء إذا ذهبت نجومها ، وأتاها ما توعد .

وجملة ما يعنيه ذهاب الأمن – فى هذا المقام – إنما هو مجىء الشر عند ذهاب أهل الخير : وذلك أنه لما كان رسول الله بين الناس ، كان يبين لهم ما يختلفون فيه ، فلما لحق بالرفيق الأعلى جالت الآراء ، وتحكمت

---

(١) البلبلة : تفرق الآراء واختلاط الألسنة والهياج : عن القاموس .

(٢) السوط : خلط الشىء بالشىء خلطاً تزول به المعالم .

الأهواء فلم يكن بد من رحيل النور وحلول الظلام ، وإذا شأن أصحابه بعده وشأن الأمة بعد الراشدين من أصحابه كشأن السماء إذا ذهبت نجومها ، واضطرب نظامها ، فآذنت بزوال .

وأنت إذا تتبعت فى القرآن الكلمات التى يقوم بناؤها اللغوى على الحروف الثلاثة الأصول : الهمزة والميم والنون — وجدتها تشير إلى حصول الأمن وانتفاء الخوف.

وليس يخفى عليك أن من الميسور غاية اليسر لى ولك ولكل من أراد استقصاء هذه المادة فى كتاب الله أن يلجأ إلى المعجم المفهرس الذى ألفه المستشرق الألمانى (فلوجل) وسعته رحمة الله ، والذى ترجمه عنه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله ، وسيرى الراجعون إلى هذا الكتاب الجليل هذا المعنى واضحاً فى أكثر من ثمانمائة آية يتعانق فيها الأمن والإيمان وصفاً به أو دعوة إليه .

والإيمان — كما يذكر صاحب النظائر — يجىء فى القرآن على أربعة أوجه :

أحدهـا : الإقرار باللسان فى العلانية كقوله : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا »[1] : يعنى أنهم أقروا علانية بلسانهم ، ثم كفروا سراً بينهم وبين أنفسهم ، أو بينهم وبين شياطينهم وخاصتهم ، وأولئك هم المنافقون .

---

(١) المنافقون : ٣ .

وثانيها : التصديق فى السر والعلانية جميعاً كقوله : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية» (١) .

وثالثها : التوحيد كما فى قوله : «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٢) .

ورابعها : أن يكون إيمان المؤمن مشوباً بتشبيهه ربه بالمخلوقين، كما فى قوله : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (٣) : فقد ذكر ترجمان القرآن فى معنى هذه الآية أن أولئك المؤمنين بالله كانوا يشبّهونه بخلقه .

ومما لا معدى عن التنبيه إليه فى هذا المقام أن الإيمان **يرد فى القرآن مقترناً بالباء** ، فيكون معناه التصديق بما دخلت الباء عليه كما فى الآية من سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . . . الآية» (٤) .

فمعنى الآية أن رسول الله ومعه المؤمنون قد آمنوا بما أنزل الله من كتاب ، وابتعث من رسول دون تفريق بين كتاب وكتاب ولا بين رسول ورسول .

---

(١) البينة : ٧ .

(٢) المائدة : ٥ .

(٣) يوسف : ١٠٦ .

(٤) آية : ٢٨٥ .

وقد يرد الإيمان مقترناً باللام ، فيكون وروده على سبيل التضمين المعروف عند أهل البيان ، ويكون معناه فى هذه الحال التطامن والخضوع كما فى قوله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين »[١] .

فإن الإيمان فى هذه الآية من سورة يونس — إنما يعنى التطامن والخضوع والإنقياد ، فيكون المعنى أنه لم يؤمن برسالة موسى خاضعاً له متطامناً إليه إلا ذرية من قومه بنى إسرائيل على خوف شديد من فرعون ومن أشرافهم وكبرائهم وذوى السن فيهم ، إذ كان فرعون من شدة البطش وغلظ القلب بحيث لا يتورع عن إنزال أقصى العقوبة بكل من يخالف رأيه أو يتنكر لهواه ، كما فعل مع السحرة المصريين الذين بدا لهم الحق فى معجزة موسى ، فآمنوا به لا يبالون فرعون ولا سلطانه ولا صرامة عقوبته ، فكان من شأنه معهم أن قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ثم صلّبهم فى جذوع النخل على ما تقرر ذلك الآيات الشريفة من كتاب الله الكريم .

والعبرة التى لا ينبغى الإغضاء عنها فى هذه الآية أن ذوى الأسنان الكبيرة وأصحاب التجارب الطويلة — لا ينفكون يؤثرون التقية والمصانعة بعيداً عن المصارحة والمجاهرة ، بخلاف الشباب الذين تشير

---

(١) يونس : ٨٣ .

إليهم كلمة الذرية فإنهم أدنى إلى المعالنة وعدم المبالاة بالطغاة المستبدين .

وفى طريق هذه الآية من اقتران الإيمان بحرف اللام — جرت الآية من سورة يوسف حكاية عن إخوته معه عليه السلام : « قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » (١) وكذلك الآية من سورة العنكبوت حكاية عن لوط مع إبراهيم عليهما السلام : « فآمن له لوط وقال : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم » (٢) .

هذا ، ولا يجىء الإيمان فى القرآن متعدياً بالباء إلا مقررا لحقيقة الإيمان التى هى تصديق قلبى جازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر : فإن أنت وجدت فى كتاب الله آية على غير هذه الصورة فاعلم أنها واردة على سبيل التهكم والسخرية كما فى الآية من سورة النساء : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (٣) .

ووجه السخرية فى هذه الآية أن الإيمان مأخوذ من الأمن ومنوط به ومفض إليه فإذا كان هؤلاء قد آمنوا بالجبت والطاغوت وتركوا الإيمان برب العالمين فقد حاولوا الحصول على الأمن بما لا يحصل الأمن به ، إذ

---

(١) آية : ١٧ .

(٢) آية : ٢٦ .

(٣) آية : ٥١ .

ليس من شأن القلب الخالى من الآفات أن يطمئن إلى الباطل ، فإذا اطمأن إليه وآمن به فلابد أن يكون عبد هوى وأسير نزوة ، ولن يكون هذا النوع من الإيمان خليقاً باسم الإيمان ، لأنه لن يكون جالباً لخير الإيمان ولا محصلاً ثمراته ، وإنما يكون مسمى بالإيمان على سبيل التجوز والتوسع فى التعبير ، كما يقول العربى ساخراً ومتهكماً : « تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع » . فيسمى الضرب الوجيع تحية ، والضرب الوجيع لا يكون تحية إلا على سبيل التهكم والسخرية . وباب التهكم باب وسيع فى لغة العرب ومنه فى كتاب الله : « فبشرهم بعذاب أليم » [1] وليس يخفى أن العذاب الأليم لا يكون موطن بشارة ؛ فوروده على هذا النحو فى هذا الأسلوب مقصود به التهكم والسخرية .

---

(١) آل عمران : ٢١ والتوبة : ٣٤ والانشقاق : ٢٤ .

الإيمان
وقضية الوجود الإلهى

ثم إن الحديث عن الإيمان يعتمد — أول ما يعتمد — النظر إلى قضية الوجود الإلهى ؛ إذ كان الإيمان بالخالق الأزلى الأبدى الغنى عما سواه هو المحور الذى تدور عليه كل الفضائل وكل الآداب التى جاء بها جميع رسل الله وأنبيائه — غير مختلفين ولا متناكرين — وفى طليعتهم الفضلى وذروتهم العليا — ساداتنا موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ومهما ركب أدعياء العلم متون العناد ، ومهما تلعبت بأفكارهم نزعات الأهواء ، فجحدوا وجود الخالق ذاتا واعية بالغة غاية الكمال فلا جرم أنهم فى موطن الحجاج عاجزون أبلغ العجز عن القيام بحجتهم والانتصار لمذهبهم فى إنكارهم موجد الكون وخالقه ومدبره ، ثم هم — بعد — مذعنون للحقيقة التى لا يخالطها شك ، وهى أن هذا الكون على هذا النظام البديع آية بينة على وجود الصانع العظيم جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ؛ إذ كان من البديهيات المسلمة أن كل موجود لا بد له من موجد يوجده ، لا يجحد هذه القضية أولئك الذين حفهم لطف الله وشملتهم

رحمته ، فجمع لهم بين منطق الفكر ومنطق الوجدان ، فاجتمع لهم بذلك من قوة الإيمان بالخالق ما لا تجرؤ شبهة أن تحيق به أو تتطاول إليه !

وليس يرتاب أهل النظر الفاقه فى أن الوجود الإلهى قائم فى الذهن السليم من الآفات على التقاء الفكر مع الوجدان التقاء تنشأ عنه حقيقة هذا الوجود الأعلى وجوداً لا يخالطه ريب ، ولا يرقى إليه غبار المعارك بين نظرات المؤمنين ونزوات الملحدين . ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته متى كان القلب سليماً ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، فإياك أن تذهب إلى ما يعتقده بعض السذج من أن ثمة فرقاً فى الوجهة بين العقل — بمعنى الفكر ، وبين الوجدان — بمعنى القلب ، فقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى — أعني القلب والوجدان — إنما هى من مبادئ البرهان العقلى ، كوجدان الإنسان أنه حىّ موجود ، وأنه مسرور أو حزين ، وأنه راض أو ساخط ، وأنه متلذذ أو متألم ، ذلك أن التخالف بين العقل والوجدان مستحيل أن يقع إلا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس .

وقد منح الله تعالى عباده العقل للنظر فى الغايات والوسائل والمسببات والأسباب والمركّبات والبسائط ، كما منحه الوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس من لذة وألم وطمأنينة وهلع وإذعان وشماس ، وما إلى ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يستطيع إحصاءه البيان .

فالعقل والوجدان هما عينان للنفس تنظر بهما : عين تقع على القريب ؛ وعين تمتد إلى البعيد ، والنفس فى حاجة إليهما كلتيهما ؛ إذ كانت لا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى . والعلم الصحيح مقوم للوجدان ، والوجدان السليم مسدد سواعد العلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان ؛ فلو اقتصر الدين على أحد الأمرين لسقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى وحدها ! وهيهات أن يتخالف العقل والوجدان إلا أن يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفرد وجودين ! وهذا فى باب الاستحالة بمكان .

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ، ولكنك تأتيه طوعاً لوجدانك ، وربما استيقنت المنفعة فى أمر ، ثم أعرضت عنه إستجابة لدافع من سريرتك فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ؛ ولكن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا يعرف غيره ؛ فعليك أن ترجع إلى نفسك ، فتتحقق من أحد الأمرين : فإما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علماً وما هى بالعلم ؛ وإما أن وجدانك وهم تمكّن منك وعادة رسخت فى مكان القوة فيك ، فهو ليس بالوجدان الصحيح ؛ وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك ، ثم ظننتها شعوراً منبعه الغريزة ، وما هى من ذلك فى قليل ولا كثير .

إن مما لا يناله الشك أنه لابد من أن ينتهى العالم إلى تآخى العلم

والدين على طريقة القرآن العظيم ، وإن مما لا يناله الشك أنه لابد من أن يأخذ العالمون بمعنى الحديث النبوى الشريف : «تفكّروا فى خلق الله ولا تفكّروا فى ذات الله» ، وإن مما لا يناله الشك أيضاً أنه – عند ذلك – يكون الله تبارك وتعالى قد أتم نوره الذى وعد به ولو كره الذين يرون الدليل ، فيصدون عنه ولا ينظرون فيه ، أو ينظرون ويعرفون الحق ، ثم لا يخضعون له ، ولا ينزلون على حكمه مضيا على سنة الهوى ، ونزولاً على منطق الاستكبار فى الأرض ، ولكن الله بالغ أمره وإن كان أكثر الناس لا يعلمون .

كذلك قرر إمام الأئمة وشيخ المتصوفة الأستاذ الإمام محمد عبده طيب الله ثراه ونضر وجهه فى جنة عرضها السموات والأرض مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وكذلك تتجلى فى أثناء قوله هذا قضية خليقة بالتدبر وإنعام النظر على قدر ما يستعين الناس بها فى مجال الدعوة إلى الإيمان بالله خالق السموات والأرض ومدبر الأمر على أحسن ما يفكر المفكرون وينظر الناظرون . وهذه القضية ــ على جلالتها ــ هى أن العقل وحده غير كاف فى مجال الدعوة إلى الإيمان بالله ، وأنه لابد من أن ينضم إليه الوجدان الذى لا سبيل إلى مغالطته بالأقيسة المنطقية التى تقوم أكثر ما تقوم على المغالبة ، فتتمهد بين يديها السبل إلى الإنكار والجحود ، وهذه العقيدة الوجدانية الفكرية فى الإله هى العقيدة القرآنية التى أقام بها الإسلام صرح

الإيمان ، وزلزل قواعد الشرك والوثنية والإلحاد .

ومن هنا يرى الذين يتدبرون كتاب الله أنه لم يكد يقيم دليلاً على وجود الله من حيث كان وجوده سبحانه من الوجدانات الضرورية التى يجدها الإنسان فى نفسه دون حاجة إلى دليل ينصرها أو برهان يؤيدها ؛ فحاولة إقامة الدليل على وجوده سبحانه لا تعدو أن تكون نوعاً من العبث الذى ينبغى التنزه عنه عند أهل الجد فى هذا الباب الجليل من أبواب الحياة الاجتماعية ، وهو باب العقائد والديانات .

ولقد يعرف أهل العلم أن العقلانيين من علماء الإسلام يقررون — فيما يشبه يقين العقائد ووضوح البديهيات — أن القضايا التى تساق مساق الأدلة المنطقية اليونانية على وجود الخالق - ما كان ينبغى أن تسمى دليلاً أو برهاناً ؛ وإنما هى إيقاظ للغافى وتنبيه للغافل ، وفرق بين التنبيه والتدليل .

ولست ترتاب فى أنك سوف تزداد بهذا الذى نقرره لك إيماناً وأنت تتلو فى تدبر المؤمنين سورة الطور وفيها قول الله جل ثناؤه : «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون»[1] .

---

(١) آيتا : ٣٥ ، ٣٦ .

فإنك لا تجد فى هذه الآيات إلا لفتاً هادئاً رفيقاً بعيداً عن الإفحام والإعنات ، يجمع الله تعالى لك به بين البرهان العقلى والحس الوجدانى بمنأى عن الأقيسة المنطقية اليونانية .

وعلى هذا النحو نفسه تجد الآيات من سورة الواقعة : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون . أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم »[1] .

فهذه الآيات من سورة الواقعة وتلكم الآيات من سورة الطور مع سائر الآيات التى تجرى مجراها — لا يراها المتدبرون كتاب الله مسوقة فى النظم الشريف مساق الدليل المنطقى اليونانى المركب من مقدمات ألفت تأليفاً مخصوصاً تنتج عنه نتيجة يبلغ بها الناظر منطقة الإيمان بوجود الله ، ولكنك تراها مسوقة مساق اللفت الهادئ والتنبيه الرفيق الذى لاعنت فيه

---

(١) آية : ٥٧ — ٧٤ :

ولا إحراج ، وتلك النتيجة هى أن الله تعالى حق لا يشوبه ريب ، ولا يرقى إليه غبار المعارك بين الملاحدة والمؤمنين .

وعلى هذا النحو من الاستدلال الذى يمتزج فيه نظر العقل بحس الوجدان لا ينكر الخلقاء بصفة الإنسانية وجود الخالق ولا أنعمَه على خلقه ، كما تقرر ذلك الآية من سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون »[١] وكذلك الآيات من سورة إبراهيم : « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كُفراً وأحلّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار . وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار . قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال . الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار »[٢]

فإنك فى هذه الآيات وأمثالها لا مندوحة لك عن الإيمان بأن

---

(١) آية : ٦١ .

(٢) آية : ٢٨ – ٣٤ .

الإنسان إذا خلى هو وفطرته دون عناد أو نزوة أو شهوة– فلا جرم أنه مؤمن بوجود الله ملء نفسه ومطاف حسه . ثم مؤمن بأن أنعم الله تعالى طائفة به على صورة تستمسك بها حياته وحياة ما سخره الله له من نبات وحيوان .

حوار مع شاب معاند

ومهما قامت فلسفة الإيمان على أن الله حقيقة لا يرقى إليها الريب وأن حواسنا محجوبة عن الإحاطة به فإن الماديين من الخائضين فى أوحال الإلحاد يقررون فى صراحة ووضوح – أنه لا إله ، والحياة مادة !

ولقد أذكر فى هذه المناسبة لقاء مع شيوعى يدعى (يورى جلوهوف) وكان شابّا متحمساً شديد الاعتداد بما فى رأسه من أفكار ، على أنه كان مهذباً بمقدار ما كان متحمساً ، وقد كان ينزل ضيفاً على اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ، وهو آنئذ مراسل جريدة برافدا بالقاهرة .

وقد زارنى فى دارى مع الأخ الصديق أحمد موسى سالم ، وذلك فى مطالع عام ١٩٧٠ ورئيس الدولة ـــ آنئذ ـــ ورئيس الاتحاد الاشتراكى هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

وما إن استقر بنا المجلس بعد تبادل التحايا حتى تراءى فى وجه الشاب الزائر أن المقصود من هذا اللقاء بى وبالأخ الصديق هو أن يسأل ويفهم : هل من الممكن أن تكون هنالك علاقة بين الدين وبين الاشتراكية التى أخذت تسير فيها مصر؟ .

وقد كان واضحاً أن الشاب السوفياتى يريد أن يطرح على عقولنا فى صورة من التحدى نظريته التى حفظها بالتكرار عن استحالة وجود

ما نسميه (الله) ، وذلك لكى ينظر ماذا سيقول المفكران الإسلاميان اللذان أساء الظن بهما جداً ، فجاء فى ثياب مزدك الشيوعى ، ليحاصرهما فى عقر دارهما بهذا السؤال الذى بلى من كثرة الإعادة على غير طائل ؟

ولم أكن – علم الله – ضائق الصدر بهذا اللون من التحدى ، بل لقد كنت مستمتعاً بهذه اللعبة العقلية ، فتركته يقرر ما يعتقده ويعتقده أمثاله من أنه لا إله والحياة مادة ، وكان طبيعياً ألا يسعنى التمادى فى السكوت ، لأن الشاب فى دارى ، ولأنه جاء يسألنى ، ولابد لى من أن أجيبه وأن أرد عليه ، ولابد أن تكون هذه الإجابة وهذا الرد من محفوظاتى عن علم الكلام الذى تلقيته فى الأزهر الشريف ، والذى هو أقرب فى أصله اليونانى إلى المصدر الفلسفى نفسه الذى خرجت منه هو نفسه جدليات المادية الماركسية .

وإننى لأومن أوثق إيمان بأن المنطق اليونانى يقوم على الإفحام ، والإفحام شيء لا تنشرح له الصدور ، ولا تطمئن إليه النفوس ، والإيمان الذى يجيء وليداً للإفحام إنما هو إيمان قلق غير مطمئن ، بخلاف الإيمان الصادر عن اللفت الهادئ والسوق الرفيق الذى ينتظمه القرآن العظيم ، فإنه إيمان مطمئن ينشأ وينمو فى ظلال السكينة والاقتناع .

ومستند هذه القضية التى أقرر فيها كراهيتى الشديدة لأساليب المنطق اليونانى ــــ أن الذين تجادلهم جدالاً قائماً على نهج هذا المنطق يكونون إلى التغالب بالحجة أدنى منهم إلى الاستعداد لقبول الحق ، ثم يكونون فى

الوقت نفسه أبعد من لطف الله بهم ومن امتهاد السبيل بين أيديهم إلى هدايته النابعة من قلوب تغمرها السكينة . وإن كثيرا من أولئك الذين متّعهم الله بنعمة السمع والبصر والفؤاد — لهم آذان لا تسمع وأعين لا تبصر وأفئدة لا تفقه ، إذ كان الله — جل ثناؤه — قد صرفهم عن الانتفاع بثمرات أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم بسبب أنهم لا يقبلون على موارد الإيمان إلا فى أجواء من العناد والجحود على ما تقرر ذلك الآية الشريفه من سورة الأحقاف : « ولقد مكنّاهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (١) :

فهذه الآية تقرر أن الإنسان لا ينتفع بسمعه ولا بصره ولا فؤاده ما دام يقبل على موارد الإيمان راكباً متن العناد أو مستصحباً نزوات الجحود ، فعند ذلك تتخلى عناية الله عنه ، فإذا هو مسوق إلى أودية من الحيرة والضلال يستحق بها أن يكون فى نطاق الآية من سورة الأعراف : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (٢)

---

(١) آية : ٢٦ .

(٢) آية : ١٧٩ .

فقد انتظمت الآية حديثاً صريحاً عن أولئك الذين انتكست فطرتهم ، فهم لا يفقهون مع أن من شأن القلوب أن تفقه ، ثم هم لا يبصرون مع أن من شأن العيون أن تبصر ، ثم هم لا يسمعون مع أن من شأن الآذان أن تسمع ، ومن هنا كانوا أضل من الأنعام ؛ فإن الأنعام لم تزود بما تمهد لها به السبيل إلى فقه ما ترى وما تسمع ، فى حين أن الإنسان قد زوده الله بذلك ، فإذا لم يفقه الحيوان فعذره معه ، وإذا لم يفقه الإنسان فلا عذر له ، وبذلك تكون النتيجة المسلمة المحتومة أن الإنسان على هذا النحو أضل من الحيوان !

هذا ، ومع إيمانى بأنه لا أمل فى محاجة مثل هذا الشاب من الجاحدين المعاندين — لم أجد منتدحاً عن متابعة الحديث معه والمضى إلى غايته المقدورة منه ، فقلت له على مرأى ومسمع من المجلس الكريم : لقد استويتم بالمراكب الفضائية على ظهر القمر ، كما دار رجال الفضاء الأمريكيون حوله عدة دورات وهم يتلون صلوات عيد الميلاد ، وقد رأيتم كما رأوا ، وكما رأينا وكما رأى الناس جميعاً على شاشات التليفزيون — أن الأرض معلقة فى فضاء فسيح دون عمد ترتكز عليها ، ودون حبال تتعلق بها ، فبماذا تعلل ويعلل قومك قيام الأرض هذا المقام العجيب فى هذا الفضاء الرهيب دون أن تهوى هوياً لا تستطيع أن تتصوره العقول كائناً ماكان حظها من ابتداع الصور والجرى فى أجواء الخيال ؟

ولم يتردد الشاب يورى جلوهوف فقال — على الفور — إن الجاذبية

هى التى تمسك الأرض على هذا النحو ! قال ذلك وهو يظن أنه قد بلغ ما يريد من نصر مذهبه القائم على أنه لا إله والحياة مادة ، ولم أتمالك أن قلت له : إن الجاذبية ليست أمراً ماديًا تلمسونه بأيديكم أو تسمعونه بآذانكم ، أو تبصرونه بأعينكم ، أو تشمونه بأنوفكم ، أو تذوقونه بألسنتكم ! ليس وراء هذه الحواس الخمس حاسة يعرفها العارفون أو يقررها العالمون ، ومعنى إيمانك بالجاذبية مع قومك فى مثل هذه الصورة — أنكم تؤمنون بشىء لا تلمسونه ولا تسمعونه ولا تبصرونه ولا تشمونه ولا تذوقونه ؛ فلم لا تؤمنون بالله كما تؤمنون بالجاذبية وإن كانت لا ترقى إلى إدراكه حاسة من الحواس الخمس ؟ إن القياس الصحيح لا يمنع هذا الإيمان ؛ لأنه لا فرق بين إيمانكم بالجاذبية مع عجز الحواس عن بلوغها وبين الإيمان بالله مع عجز الحواس عن بلوغه جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه .

وإذا قلتم : إنكم تؤمنون بالجاذبية من أجل ما يتراءى لكم من آثارها — فإن عليكم أن تسايروا منطقكم هذا إلى غايته ، فتؤمنوا بالله من أجل ما يتراءى لكم من آثاره سبحانه فى روعة الخلق وكمال النظام الذى يهتف بذوى الألباب فى جميع مظاهر كونه العظيم .

وكان من الحق علىَّ أن أترك زمام الحديث لأخى الصديق العالم ، فمضى يقول له :

أولاً : إن الاشتراكية بما يقال عن دعائمها فى المساواة ، وجماعية العمل ، وجماعية التملك — مطلب إنسانى قديم ، وليس حكراً على الماركسية اللينينية ، إنها دعوة الدين وتطبيقاته ، كما ظهر اجتهاداً فردياً فى المسيحية ، وكما تجسد نظاماً ومجتمعاً ودولة فى الإسلام ؛ كما أنها دعوة ومحاولات لبعض الطوبائيين كما تسمونهم منذ أفلاطون حتى (مور) (وأوين) (وسان سيمون) ، وكما أنها تجربة المعسكر الشيوعى أو الماركسى فى هذا العصر . وهى التجربة التى لم تتمخض عن اقتناع كل العالم فضلاً على اقتناع كل الشعوب (الخاضعة) للنظام الشيوعى فيما عدا رجال الحزب الشيوعى بالطبع !

ثانيا : إن الماركسيين فى هذا العصر إذا اعتبروا أن (الإلحاد) عقيدة علمية ، وأنه نقطة البداية والانطلاق للعلاقة مع الشعوب غير الملحدة — فإنهم يخطئون كثيراً من الجانب العلمى الذى يدّعون الاهتمام به هو نفسه : ذلك أنه من الواضح بالتجربة — كما قال لكم كثيرون ممن يؤمنون بالله — أنه إذا كان من غير الممكن للمؤمنين أن يثبتوا وجود (الله) داخل المختبر العلمى بالطريقة التى يمكن بها إثبات وجود العناصر المادية الخفية فى المادة — فإنه من غير الممكن أيضاً نفى وجود هذا الإله من خلال تجربة مشهودة ملموسة داخل المختبر العلمى . هذا مع الفارق فى الأمرين لمصلحة المؤمنين ضد الملحدين : وهو أن عجز المؤمنين طبيعى عن

إثبات الله باللمس والرؤية داخل المختبر العلمى ، من حيث إن خالق الأشياء لا يمكن الاستدلال عليه بالطريقة التى يستدل بها هى نفسها على الأشياء . . فى حين أن عجز الملاحدة عن نفى وجود الله فى المختبر العلمى غير طبيعى إذا كان نفى الله — كما يزعمون — حقيقة علمية مادية .

ثالثاً : ونحن فى مصر وفى كل الوطن العربى — ننظر إلى الدين نظرتنا إلى أساس العدل ، والعمل الجماعى ، ورفض الاستغلال والطبقة ، ونملك حوافز أكثر وأصدق باتساع الزمان والمكان فى رؤيتنا الدينية لتحقيق هذا العدل وهذه السواسية الإنسانية بصورة أتم ، وبغير خوف ، وبكثير من أخلاق الإيثار التى تحرك الاقتصاد عندنا ، وتوجهه بدلاً من أن يكون اقتصاد قهر وإرغام !

ولكنكم بنظرتكم إلى المجتمعات العربية المتخلفة فى هذا العصر . والمتحركة فى واقعها ببقايا آثار أعدائها فيها — تظنون أن الحل الحتمى لتقدم العرب هو التخلى عن الدين ، والتجمد فى زمهرير الشيوعية ! وهذا الظن يرجع أساساً إلى عجزكم عن رؤية الماضى الذى صنع العرب أعظم ما فيه من إنجازات العدل ، والعلم والعمل الجماعى ، والنزوع إلى السلام !

وعلى هذا النحو مضى الصديق أحمد موسى سالم فى حديثه إلى الفتى السوفياتى . ولو قد كان لى أن أضيف إلى ما قال شيئاً لقلت للفتى المتحمس ولمن وراءه من الملاحدة المتحمسين : ما كان يقوله الأستاذ

العقاد من أن أدعياء العلم هؤلاء لو جروا على سنتهم فى إثبات الأشياء لرفضوا وجود المادة الملموسة عجزاً منهم عن إدراك أصولها . وما أصولها إلا العناصر التى تنشق شعاعاً متحركاً فى أثير لا وزن له ولا حركة ، ولا لون ولا طعم ، ولا تُعرف له صفة واحدة من صفات الأجسام ، بله الأرواح !

ومما لا غنى عن التطلع إليه فى هذا المقام ما ذكره مؤمن العلماء وعالم المؤمنين الأستاذ الدكتور أحمد زكى حيث قال رضى الله عنه : فى الاشتغال بمطالب العيش والاغتمار فى غمرة الحياة — ينسى الناس أن يفكروا ، فهم يتساءلون : ما الغاية من هذا الوجود ؟ وما اشتغال بعيش ؟ وما اغتمار حياة ؟ .

وقد يتنبه الناس من غفلة ، أو يستيقظون من غفوة إذا أصابهم مرض ، أو عاقهم عجز ، أو نابتهم نائبة — وشر النوائب عندهم الموت ينزل بقريب أو حبيب — ففى هذه الفترات السود البارقة فى سوادها يتوقف الناس يستخبرون : من أين جئنا ؟ وإلى أين المصير ؟

ولكنها فترات لا تطول ؛ فحوافز العيش تعود فتحفز ويشتد حفزها ، والحياة تعود فتهتف بحاجاتها ويشتد هتافها ، والإنسان منا يلبى — جبراً لا اختياراً — ويتركز على يومه وقد نسى أمسه الذى كان ، وينسى يومه الذى سوف يكون إلا من حيث ما يطعم ويلبس وينعم أو يشقى بالحياة .

ولكن مع كل هذا — فمن تحت صخب النهار ومن بين الأصوات الصارخة فى معركة العيش — يحس الإنسان منا صوتاً خافتاً يحاول دائماً أن يصل إلى الآذان ، وهو يصل إليها عندما يتعب القائم فيحتاج إلى القعود ، وعندما يجهد الجاهد فيتصبب عرقاً ، فيأوى إلى ركن هادئ يجفف عن وجهه عرقه الصبيب ؛ أو هو يصل إليه فى هدأة من الليل وقد

قعد فى العراء يرعى أشياء هذه الأرض ، ويرعى — على الأكثر — أشياء هذه السماء .

وهو إذ يرعى السماء أشياءها ونجومها — يزداد هذا الصوت الخافت فى أذنيه ، ثم يزداد حتى يصير صراخاً : هذه السماء ما هى ؟ وهذه النجوم ما أعدادها ؟ وما أبعادها ؟ وما فتات من النور مبعثر فى هذه القبة البلقاء بعثرة الرمال على أديم الصحراء ؟ وكيف تحور هذه القبة ؟ وكيف تدور ؟ وما شروق لها ؟ وما غروب ؟ وما نسق وأنساق تجرى عليها ، ومواعيد تضربها فلا تخلف أبداً ؟ .

ويأخذ الإنسان ينعم النظر رافعاً بصره وهو — إذ يملأ بالذى يراه عيناً — يملأ به فكراً ، ويملأ قلباً ، وعندئذ يرى تلك الصور وهى تجرى فى أزمَّةٍ يجمعها فى آخر الأمر زمام واحد ، ويرد تلك المعانى مختلفة كاختلاف ألوان الطيف من أحمر وأصفر وأزرق ، فإذا هى مجتمعة كما

يجتمع الطيف ، فيكون منه لون أبيض واحد ، ويرد كل هذه الصور ، وكل هذه المبانى — إلى يد صناع واحدة تحركها إرادة عاقلة منسقة هادية واحدة : تلك هى يد الله ، وتلك هى إرادة الله .

على هذا جرى الأقدمون ، واهتدوا إلى كشف حقيقة الله .

ثم جرى الزمن فجاء العلم ، أشرق على الناس العلم الحديث منذ ثلاثة قرون . وهو بعد ما بلغ الضحى، وكشف العلم عن عجيب ما صنع الصانع : كشفه فى النبات وهو صنوف لا عداد لها ، وكشفه فى الحيوان وهو أجناس لا حصر لها ، وكشفه فى الإنسان أسمى حيوان ، وكشف عن أنساق واحدة فى كل هذه الصنوف والأجناس جميعاً ، وكشف عن قوى تعمل فيها كلها قوة واحدة على اختلاف فى درجات ولكن على اتحاد فى غاية ، وهدى المنطق وهدت الفطرة إلى أن صاحب هذه الأنساق لابد واحد ، وإلى أن مجرى هذه القوى لتعمل على هذه الأساليب الواحدة لابد واحد .

ونسق العلم ما بين الأرض الجامدة وما عليها من أحياء ، ونسق ما بين الأرض جامدها والحى ، وبين هذه الشمس وذاك القمر ، وأثبت أن المعدن واحد والأصل واحد ، وأثبت أن الذى صمم عين الإنسان بعدستها ومائها وما وراء الماء من شبكة تلقى عليها الصور — هو لابد الذى صمم هذه الشمس ، وأخرج منها تلك الأشعة ، ووجهها إلى الأرض

فهذه العين تكون عبثاً لولا هذا الضياء .

وجاء العلم وجاء العلماء بألف ألف دليل على وحدة الأرض وما عليها ووحدة السماء ، ومن هذه الوحدة درج الناس والعلماء إلى وحدة رب هذه الأرض ورب السماء .

ومع هذا بقيت فى العلماء بقية تقول بالخلق – طَبْعاً – وتنكر وجود الله !

كذلك قال العالم الشاعر الفيلسوف أحمد زكى نفعنا الله بعلمه وثمرات عقله .

نحن والإيمان

والآن– وقد انتهينا إلى هذا الموطن– نرى من الحق علينا أن نعود بك إلى ما بدأناه من حديث العودة إلى الإيمان :

لقد كان بعض قصار النظر فينا قد أرادوا لنا أن نتنكر للإيمان فى عقائدنا وسلوكنا ، على حين أن الإيمان– لطول ما عايشنا وعايشناه ، وألفنا وألفناه– صار كأنما هو طبيعة من طبائعنا ، أو ملكة راسخة بين ملكاتنا ، أو وجدان لازم من وجداناتنا . . فإذا الطمع فى أن يرتد هذا الشعب عن التدين طمع فى أمر لا يكون أبداً ، لأنه لم يكن قط !

إن شعبنا المصرى عريق فى التدين عراقته فى العلوم والفنون : يسلم بهذه الحقيقة وينقاد لها من يتدبر تاريخ مصر منذ أقدم العصور ؛ إذ يراها فى أطوارها المختلفة مؤمنة وثيقة الإيمان ، سواء فى ذلك طورها الفرعونى الوثنى ، وطورها القبطى المسيحى ، وطورها العربى الإسلامى ؛ وسواء فى ذلك– أيضاً– أولئك الذين يعتقدون أن الدين وفد عليها من خارجها أو نبت فيها من داخلها ؛ كما يقرر ذلك الأستاذ العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار : من أن الله تعالى قد ابتعث فى هذه البلاد منذ أقدم العصور نبيّا يدعى أخنوخ ،. وهو نبى الله إدريس الذى كان يعيش فى صعيد مصر داعيا بالدعوة التى دعا بها جميع الأنبياء والرسل من الإيمان

بالخالق وإيثار العدل واعتقاد نظرية الجزاء يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وبتمثل هذه الصورة الشريفة لشعبنا– ترى الذين حاولوا التنكر للدين فى هذه البلاد قد هبطوا إلى أدنى المنازل من قصر النظر وضحالة التجربة وسوء الظن بالشعب الذى زعموا الانتساب إليه ، واصطنعوا الغيرة عليه وهم ماضون فى استيرادهم له مبادئ ومناهج لم ينتفع بها أولئك الذين اختلقوها فى بلادهم مع أنهم أحق بها وأهلها ! وإن كل ما ظفر به هؤلاء المغامرون أنهم شبوا نيران الأحقاد بين طوائف الشعب فى مصر وبينه وبين سائر الشعوب فى مختلف أرجاء أمتنا ، ولكن الله تعالى كان أرأف بنا– شعباً وأمة– فابتلانا فى عام ١٩٦٧ بهزيمة أليمة طأطأت بها رءوس وخشعت لها أبصار ؛ إذ كانت المحنة بها مشبوبة النار مسعورة الأوار وهى تتلمظ إلى أن تأتى على الماضى الماجد ، وتشوه وجه الحاضر المجاهد ، وتأخذ الطريق على المستقبل الكريم المأمول .

غير أن المحنة ربما تحولت إلى منحة ، والشر ربما جاء بالخير ؛ كما يبدو ذلك على غاية الوضوح فيما ساقه الله إلينا من خير بدت طلائعه فى اقتحام جنودنا البواسل حصون الأعداء يوم السبت العاشر من رمضان ٦ من أكتوبر سنة ١٩٧٣) ، وهم يومئذ أحرص على الموت منهم على الحياة !

وربما كان من الحق علىّ أن أدون هنا– لله ثم للتاريخ– تلك الكلمات التى كان قد تحدث بها إلىّ المرحوم المشير أحمد إسماعيل حين زرته فى مبنى القيادة بمنشية البكرى عقيب عودتى من لندن بعد معركة

العبور ، فقد سألته يوم ذاك : عن المعنى الذى يمكن أن يرد إليه نجاح خطة العبور ، وهى الخطة التى كان بعض المعاهد العسكرية فى لندن يدرسها لطلابه ومرتاديه فى تلكم الأيام !

قال المشير إسماعيل رحمه الله : إننا نستطيع أن نرد ذلك إلى أمرين : أولهما : أننا عدنا إلى هذا المبنى بعد أن كنا هجرناه عام الهزيمة إلى الجبل الأحمر حيث عايشنا هناك السوفيات ، وهذا المبنى – كما تعلم – هو المبنى الذى انطلقت منه ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فهو مبنى مبارك انفصل عنا خيره حين انفصلنا عنه ، وعاد إلينا هذا الخير حين عدنا إليه .

والآخر : أننا استبدلنا بالشعار الذى كان مألوفاً لقواتنا المسلحة شعاراً آخر أقدر على تحريك العواطف المؤمنة فى مجال الجهاد ، وقد كان الشعار المألوف لقواتنا المسلحة قبل ذلك قائماً على صراخ لا معنى له ولا خير فيه إلا أن يكون المقصود به أن يلتحق الإنسان المعاصر بالإنسان الأول يوم لم تكن له لغة مبينة ولا مثل رفيعة ، ونحن شعب يؤمن بالله ويرى فى الإيمان به عوضاً من كل فائت : فالذين ينفقون أموالهم يعوضهم الله عنها خيراً منها ، والذين يبذلون حياتهم يعوضهم الله حياة أسعد وأخلد ؛ ومن هنا كان استبدالنا شعار (الله أكبر) بشعار الصراخ خيراً وبركة يساير الخير والبركة التى ظفرنا بها عن طريق عودتنا من الجبل الأحمر إلى هذا المبنى فى منشية البكرى ، وقد كان شعار (الله أكبر) ينطلق من أفواه العابرين فى دوىٍّ كقصف الرعود مشتركاً فى الإرعاد به المسلمون والمسيحيون فى

ميدان المعركة ؛ كما كان يرتله ويتغنى به الرجال والنساء والصبايا والصبيان فى القرى والمدائن .

وأشهد أننى كنت – وأنا أستمع إلى هذه الكلمات من المرحوم المشير إسماعيل – أتمثل الهزيمة الأليمة رحمة من الله بشعبنا ، وفضلا منه على أمتنا .

ولئن كان كثير من الناس قد نظروا إلى هزيمة ٦٧ على أنها محنة يستغلظ بها عود اليأس – لقد كشفت الأيام عن أنها منحة تحيا بها الآمال إذا حسنت النيات ، وامتهدت السبل بين أيدى العاملين المخلصين . وما أكثر ما تتحول المحن إلى منح إذا خلصت النوايا وصدقت العزائم ؛ والذين يتدبرون أحداث التاريخ فى القديم وفى الحديث يستطيعون أن يظفروا بقضايا كثيرة كانت بالإضافة إلى أمم وشعوب ، بل إلى أفراد محنا ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى منح مع مضى الأيام والانتفاع بالعبر والعظات !

وما أصدق تلكم الكلمة الجليلة التى كانت تجرى على لسان سيد من سادات الدعوة الإسلامية ، وكانت قد نزلت به مع مريديه نازلة لا يصبر على لأوائها إلا الصابرون ، فكان كلما ذكر تلكم النازلة أو ذكرت له يقول : «تلك منحة ألبسها الله تعالى ثوب المحنة حتى لا نغبط عليها . »

هذا . والدليل على أن المحنة الأليمة ربما تحولت إلى منحة عظيمة – قصة إمام من أئمة المسلمين تحولت فيها محنته إلى منحة رضيت بها دنياه

وسعدت أخراه ، وصارت فى أدبنا العربى وتراثنا الإسلامى مضرب أمثال ومهفى أرواح وموطن عبر وعظات : ذلكم هو الإمام الجليل عالم البصرة وزاهدها وإمام أئمتها مالك بن دينار ، وليس يجهل أحد من أهل المعرفة مالك بن دينار فى زهادته وتقواه وحرصه على تجنب مساخط الله وتحصيل مراضيه . وقد كان الرجل – فى رواية الأديب العظيم مصطفى الرافعى (١) – يحترف أشرف حرفة وأكرمها ، فكان يكتب المصاحف للناس ويعيش مما يأخذ من أجرة كتابته تعففا أن يطعم إلا من كسب يده – فعل نبى الله داود عليه السلام .

وذات يوم فرغ أبو يحيى مالك بن دينار من كتابة المصحف ، ثم خرج من داره إلى المسجد ، فأتاه فصلى بالناس الفريضة وجلسوا هم ينتظرونه ، واستوى هو قائماً فركع وسجد ما شاء الله له أن يركع ويسجد ، ثم انفتل من صلاته ، فقام إلى أسطوانته التى يستند إليها ، وتحلّق الناس حوله جموعاً خلف جموع خلف جموع يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هناك من كثرتهم وامتدادهم حتى تغطى بهم المسجد على سعته وامتداد آفاقه ، ومد الإمام عينه فى الناس ثم أطرق إطراقة طويلة والقوم كأنما على رءوسهم الطير مما سكنوا لهيبته ، ومما عجبوا لخشعته ، ثم رفع الشيخ رأسه وقد تعلقت بجفنيه دمعة وأشرقت على شفتيه ابتسامة ، فبدر شاب حدث فسأله ما بكاء الشيخ !

---

(١) وحى الرسالة .

وكان الفتى قريباً من الإمام يجلس فى الخط الذى يمتد فيه بصره ، فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه طرفه كالمتعجب ، ثم لبث لا يجيبه كأنما أخذته عن نفسه حال لا يُثبت معها شيئاً مما يرى .

وازداد الناس عجباً ؛ إذ كانوا لم يجربوا عليه من قبل عيا ولا حصراً ؛ وإذ كان هو لم يقطعه سؤال قط ، ولا تخلف عن جواب قط ، فقال الناس فى أنفسهم : إن للشيخ لشأنا ، ولابد أن يكون من وراء صمته هذا شعاب فى نفسه تعتلج فيها معان ، وتعترك ذكريات ، ولم يلبث الإمام أن تبسم إلى الناس ثم قال : لقد حضرتنى ذكرى فبكيت ، وتمثلت رؤيا فتبسمت :

فأما الذكرى فكانت حول الحسن البصرى وأنتم تعرفون الحسن البصرى : تعرفون أنه العالم الزاهد الورع ، وأنه كان مولى لآل أبى أيوب الأنصارى ، وأن أمَّه كانت أمة لأم سلمة زوج النبى ، فكانت ربما غابت فتعطيه أم سلمه ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه ، فربما درّ ثديها له فشرب ، فالناس يرون أن تلك الحكمة والفصاحة والزهادة إنما هى من بركة ذلكم الثدى الكريم ، ثم لعلكم لم تنسوا ما يصفه به الواصفون من أنه كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميم ، وإذا جلس فكأنما يتهيأ لتضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له !

ولقد كان الحسن — على ذلك — شيخاً لى أفزع إليه كلما مسنى همٌّ أو نزلت بى شدة ، فلما ذكرته فى مجلسى هذا وتمثلت ما كان يحطه به أعداؤه من

ألوان الدس والكيد رحمته ، فهذه هى الذكرى التى بكيت لها .

وأما الرؤيا التى تبسمت لها حين تمثلتها فإنى مخبركم عنها فى قصة أحدثكم فيها عن نفسى فأرعونى أسماعكم ، وأحضرونى أذهانكم لتنتفعوا عنى بما أقول :

كنت فى صدر أيامى شرطياً . وكنت آنئذٍ فى إبان الحداثة أتفتى وأتشطر وكنت قوياً معصوباً فى مثل خلقة الجبل من غلظ وشدة . وكنت شديد القسوة حتى كأن فى أضلاعى صخرة لا قلباً . فلا أتأثم ولا أتحرج ؛ وكنت مدمناً على الخمر ؛ لأنها روحانية شيطانية يبتغى السعادة فيها من عجز أن يحصّل السعادة من روحانية ربانية ، فبينما أنا ذات يوم أجول فى السوق أرقب السارق وأعد للجانى وأتهيأ للنزاع — إذ رأيت اثنين يتخانقان وقد خنق أحدهما الآخر ، فأسرعت إليهما ، وإذا المظلوم الضعيف يقول للظالم القوى : لقد سلبتنى فرح بنياتى ، وسيدعون الله عليك ، ولن تصيب بعد ذلك خيراً أبداً ؛ فإننى ما خرجت إلى هذه السوق إلا اتباعاً لقول رسول الله ﷺ : «ما خرج مسلم إلى سوق فاشترى منها شيئاً ، فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور إلا نظر الله إليه نظرة رضا ورحمة» .

وقد كنت آنئذ عزبا لا زوجة لى أسكن إليها ، فانتبهت الآدمية بين جوانحى ، وقد طمعت فى دعوة صالحة من البنيات المسكينات إذا أنا أدخلت عليهن فرحة ، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضى ، وأضعفت

له من ذات يدى لأزيد فى فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف من السوق : عهد يحاسبك الله عليه ويستوفيه لى منك إلا جعلت بناتك يدعون لى إذا رأيت فرحتهن بما تحمل إليهن ، وقل لهن : مالك بن دينار.

وبت ليلتى هذه أتقلب من شدة الفكر فى قول رسول الله وفى معانيه الكثيرة التى تحث على إكرام البنات والتى تقرر أن من أكرم بناته حرصاً على أن ينشأن كريمات فرحات فقد كرم على ربه ، وما زال هذا الحديث نجوى روحى وملء نفسى طوال ليلتى تلك إلى الصباح ، وفكرت — حينئذ — فى الزواج .

ولما كنت أعلم أن الناس لا يزوجوننى من طيباتهم مادمت من الخبيثين — لم أجد بدًّا من الاتجاه إلى سوق الجوارى ، فمضيت إلى السوق واشتريت جارية نفيسة وقعت منى أحسن موقع ، ثم ولدت لى بنتاً شغفت بها أعظم شغف ، وقد ظهرت لى فيها الإنسانية الكبيرة التى لم تكن لمثلى ، فرأيت بُعد ما بينى وبين صورتى الأولى : رأيتها سماوية لا تملك شيئاً سوى أبيها وأمها ، فليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع ، فعلمت من ذلك أن الذى تكتنفه رحمة الله فيملك بها دنيا نفسه ما كان ينبغى له بعد ذلك أن يأسى إذا فاتته دنيا غيره ، كما علمت أن الذى يجد طهارة قلبه لابد أن يجد سرور ذلك القلب ، وأن الذى لا يبالى بالهم لا يبالى

الهم به ! .

كانت البنية بدء حياة فى بيتى وبدء حياة فى نفسى ، فلما دبت على الأرض ازددت لها حباً وبها إلفا ، فرزق روحى منها أطهر صداقة فى صديق تتجدد للقلب كل يوم بل كل ساعة ، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه ، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة .

وجهدت أن أترك الخمر فلم أستطع ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبى ابنتى وضع فى الخمر الآثام التى وضعتها فيها شريعة الله فكرهتها أشد كره ، ومع ذلك كنت أعكف عليها . غير أننى كلما وضعت المسكر وهممت به دبت بنيتى إلى مجلسى هذا ، ثم جاءت فجاذبتنى الكأس حتى تريقها على ثوبى ، فلا أغضب إذ كان هذا يسرها ويضحكها فأرانى أسر لذلك وأضحك .

ودام هذا منى ومنها ، فأصبحتُ فى المنزلة بين المنزلتين : أشرب مرة وأترك مراراً ؛ إذ كانت النشوة بابنتى أكبر من النشوة بزجاجتى ، وإذ كنت كلما رجعت إلى نفسى أستعيذ بالله أن تعقل ابنتى معنى الخمر يوما فتقتدى بى ، فأكون قد بخست أيامها ثم أتقدم إلى الله وعلىّ ذنوبها فوق ذنوبى ، فإذا ترحّم الأولاد على آبائهم وجدتها تلعننى ؛ وعلى هذه الظنون وأحاديث النفس مضيت وأنا أصلح من أمرى شيئاً فشيئاً ، وكلما كبرت بنتى كبرت فضيلتى ، فلما تم لها عامان ماتت فكدّنى الحزن عليها ، ولم يكن لى من قوة الروح ووثاقة الإيمان ما أتأسى به وألجأ إليه ، فضاعف

الجهل أحزانى ، وجعل مصيبتى مصائب ، فرجعت من ذلك إلى شر مما كنت فيه ، وكانت أحزانى أفراح الشيطان فأراد — أخزاه الله — أن يفتن فى أساليب فرحه بى وقد عدت إلى جواره ، واستلقيت فى رحابه !

فلما كانت ليلة النصف من شعبان — وكانت ليلة جمعة — سول لى — لعنه الله — أن أسكر سكرة ما مثلها سكرة ، فبت كالميت مما ثملت ، وتقاذفتنى أحلام وأحلام ، ثم رأيت القيامة والحشر وقد ولدت القبور من فيها ، وسيق الناس وأنا معهم وليس وراء ما بى من الكرب غاية ، وسمعت خلفى زفيراً أشبه بصوت الأفاعى ، فالتفت فإذا تنين عظيم ما يكون أعظم منه ، طويل كالنخلة السحوق يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم ، وفى فمه مثل الرماح من أنيابه ، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبتت فيها خضراء ، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمنى ، فمررت بين يديه هارباً فزعاً ، وإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت من الضعف والهزال فعذت به أقول : أجرنى أجارك الله ! فقال : أنا ضعيف كما ترى ، ولست أقدر على هذا الجبار ، فأسرع مبتعداً عنه ، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة ؛ فوليت هارباً ، وأشرفت على النار وهى الهول الأكبر ، فرجعت هارباً والتنين على أثرى ! ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرت به ، فبكى من الرحمة لى وهو يقول : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب إلى هذا الجبل فلعل الله يحدث لك أمراً . فنظرت فإذا جبل تقوم عليه دار عظيمة لها

نوافذ وشبابيك عليها ستور ، فأسرعت إليها والتنين من ورائى ! فلما شارفت الجبل فتحت النوافذ ورفعت الستور وأشرفت علىّ وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التنين منى ، وصرت فى هواء جوفه وهو يتضرم علىّ ، حتى إذا لم يبق إلا أن يأخذنى — تصايح الأطفال جميعاً : يا فاطمة يا فاطمة ، وإذا ابنتى التى ماتت قد أشرفت ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم وثبت كالقذيفة ، فجاءت بين يدى ، ومدّت إلىّ شمالها ، فتعلقت بها ، ومدّت إلى التنين يمينها فولى هارباً ، ثم أجلستنى — وأنا كالميت من الخوف والفزع — ثم قعدت فى حجرى كما كانت تصنع فى الحياة ، وضربت بيدها إلى لحيتى وقالت : يا أبت ، « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » [1] .

فبكيت وقلت : يا بنية ، أخبرينى عن هذا التنين الذى أراد هلاكى ؛ قالت : ذلك عملك السوء الخبيث ، أنت قويته حتى بلغ هذ الهول الهائل — والأعمال هنا ترجع أجساماً كما رأيت — قلت : فذاك الشيخ الضعيف الذى استجرت به فلم يجرنى ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح . أنت أضعفته فضعف حتى لم تكن له طاقة أن يرد عنك عملك السيئ . ولولم أكن لك هنا ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله فيمن فرّح بناته المسكينات الضعيفات ، ما كانت لك هنا شمال تتعلق بها ، ويمين تطرد عنك التنين !

---

(١) الحديد : ١٦ .

ثم انتبهت من نومى فزعاً ألعن ما أنا فيه ولا أرانى أستقر كأنى طريدة عملى السيئ : كلما هربت منه هربت إليه ، وأين المهرب من الندم الذى كان نائماً فى القلب واستيقظ للقلب ؟ .

ولكننى أملت فى رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر وقلت فى نفسى : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمره ما كان ينبغى أن يستهين به ، وصممت على التوبة لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف الذى رأيته فى المنام أسمن به لحمه وأقوى عظمه ، حتى إذا استجرت به أجارنى ولم يقل : أنا ضعيف كما ترى !

وسألت عن سبيل التوبة النصوح فدلنى الناس على الحسن البصرى الذى كانت حلقته هنا فى المسجد ، وقيل لى : إنه جمع كل علم وفن إلى ورع وزهد وعبادة ، وإن لسانه السحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن فى صدره إنجيلاً لم ينزل .

* * *

وغدوت إلى المسجد والحسن فى حلقته يقص ويتكلم ، فجلست حيث انتهى المجلس ، فلم يك غير بعيد حتى عرتنى هزة كنفضة الحمى ، إذ سمعت الشيخ يقرأ تلك الآية التى قرأتها علىّ ابنتى فى المنام : «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » ، فلو لفظتنى الأرض من بطنها وانشق القبر عنى بعد الموت ما رأيت الدنيا أعجب مما رأيتها فى تلك الساعه وأخذ الحسن يفسر الآية الكريمة فصنع بى كلامه

ما لو بعث نبي من أجلى خاصة ما صنع كلامه بى أكثر ما صنع بى كلام الحسن . وكلام الحسن غير كلام الناس ، وغير كلام العلماء ، فإنه يتكلم من قلبه ومن روحه ومن وجهه ولسانه ، إنه رجل خاشع متصدع من خشية الله ، إنه الرجل الذى تصلح الدنيا إذا طلع فيها أمثاله ، ويستشرى فيها الفساد إذا غاب عنها أمثاله !

* * *

كذلك فسر الإمام مالك بن دينار لمجلسه الجامع فى مسجد البصرة سر الدمعة فى جفنيه وسر البسمة على شفتيه حتى إذا إنتهى من حديثه الذى أسلفنا صاح المؤذن : (الله أكبر) . فردد المسلمون نشيد الأمة الإسلامية (الله أكبر) ، ثم قاموا إلى الصلاة يؤمهم العالم الزاهد مالك بن دينار الذى كان شرطيًا رجع إلى الله أولا من سوء ما كان يصنع فى شرطيته ، ثم امتحنته الأقدار بموت إبنته أحب مخلوق إليه ، فكانت محنته بها محنة أليمة ردته إلى شرطيته الفاجرة أو إلى شرطية أوغل منها فى باب الفجور ، ولكن عناية الله لم تشأ أن تتخلى عنه فردته إلى حظيرة الإيمان إماماً تقياً ورعاً ناسكاً زاهداً يتقدم صفوف المؤمنين فى عصره ، ويؤم بهم الصلاة فى المسجد الجامع بالبصرة ، وبذلك انقلبت المحنة منحة ، وجاء الشر المستطير بالخير الكثير ، وعناية الله دائماً لا تتخلى عمن يلودون به ، ويحتمون بحماه .

* * *

وعلى هذا المثال تكون محنة شعبنا بالهزيمة الأليمة فى يونيه سنة ١٩٦٧ ؛ فقد تحولت تلك المحنة إلى منحة حين عدنا بها إلى الإيمان بالله إيماناً نضرع إلى الله عز وجل أن يجنبه غلو الغلاة وحماقة الحمقى وتربص المتربصين .

العودة إلى الإيمان . . نعمة

وأنت إذا تأملت فى هذه الكلمات التى أسلفناها لك عن العودة إلى الإيمان — فلا جرم أنه سيتبين لك أن وجود الخالق العظيم هو الوجود الحق ؛ لأنه يستند فى عقول الذين أوتوا العلم إلى سلامة الفكر ، وصحة الوجدان . ولست ترتاب فى أنك إذا امتهدت بين يديك السبيل إلى سلامة الفكر وصحة الوجدان — فإنك واصل — مشمولاً بعناية ربك — إلى كمال الإيمان وتمام اليقين .

ومما لا معدى عن التنبيه إليه فى حديثنا هذا إليك أن الإيمان بالخالق العظيم يستلزم صورتين من صور العقيدة الإيمانية لابد منهما ولا مندوحة عنهما للظفر بحقيقة الإيمان ، ولقضاء الحق للصفة الكريمة التى وصف البارى بها نفسه وهى أنه رب العالمين : وذلك أن الرب هو المربى . ومن شأن المربى الحكيم العادل الرحمن أن يبين للمربوبين طريق الفلاح فى مختلف مجالات الحياة ، ثم أن يجعل لهم يوماً يحاسبهم فيه على ما قدموا ، على أن يكون للمحسن ثوابه وعلى المسىء عقابه إلا أن يعفو ويرحم .

وأولى الصورتين : أن الله لا يترك عباده هملا بغير أمر ولا نهى ؛ إذ كان قد بين لهم على لسان رسله وأنبيائه أجمعين الحلال والحرام ، وسبيل الطاعة وسبيل المعصية ؛ كما فى قوله من سورة القيامة (٣٦) : «أيحسب

الإنسان أن يترك سدى » ؛ فقد بين تعالى أنه ليس لابن آدم أن يظن بربه أنه يتركه هملا بغير أن يأمره بما فيه خيره وينهاه عما فيه شره في دنياه وآخرته . ويؤيد هذا المعنى قوله فى سورة الليل/١٢ : «إن علينا للهدى» ؛ فقد أوجب على نفسه أن يبين لعباده طريق الهدى من طريق الضلال .

وأخرى الصورتين : أن تبيان طريق الهدى من طريق الضلال يقتضى أن ثمة يوما يقوم الناس فيه لرب العالمين ، ثم يحاسبون فيه على أعمالهم ، ويجزون بها خيرا إن كانت خيرا وشرا إن كانت شرا ؛ كما تقرر هذا المعنى الآيتان الكريمتان من سورة الغاشية ٢٥ ، ٢٦ : «إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم» ، وكذلك قوله فى سورة الزلزلة/٧ ، ٨ : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» .

فالإيمان –إذن– ذو أصول ثلاثة : إيمان بالخالق العظيم على الصورة التى ارتضاها صفة لنفسه جل ثناؤه ، وهى أنه رب العالمين وأنه الرحمن الرحيم ، وإيمان بأن الله لابد أن يبين لعباده على لسان أنبيائه ورسله طريق الخير وطريق الشر ، ويأمرهم بسلوك هذه واجتناب تلك ، ثم إيمان بيوم الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وهذه الأصول الثلاثة هى التى تغياها القرآن داعياً إليها فى كل كتاب أنزل وكل رسول ابتعث . وفى ذروتهم محمد رسول الله الذى أنزل عليه

القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

وقد تضمنت سورة الحمد « الفاتحة » هذه الأصول الثلاثة وهى خلاصة الدعوات الدينية فى الكتب السماوية وعلى لسان جميع الأنبياء والمرسلين . ولعله – من أجل هذا التضمين – سميت سورة الحمد « أم القرآن » وجعلها رسول الله ﷺ هى القرآن العظيم ؛ كما يقرر ذلك الحديث الصحيح عن سعيد بن المعلى ، وفيه أن رسول الله ناداه قائلاً له : « ألا أعلمك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ ألا إنها سورة الحمد ؛ فإنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ! ! :

فأما أنها السبع المثانى فإنها سبع آيات بدؤها (باسم الله الرحمن الرحيم) ونهايتها (ولا الضالين) .

وأما أنها القرآن العظيم الذى أوتيه رسول الله ﷺ – فلأنها اشتملت على الأصول الثلاثة للإيمان :

فإلى الأصل الأول وهو الإيمان بالخالق يشير قول الله سبحانه : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » .

وإلى الأصل الثانى وهو تبيان الله لعباده طريق الخير وطريق الشر يشير قول الله سبحانه : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وإلى الأصل الثالث وهو يوم البعث والحساب والجزاء يشير قوله سبحانه : « مالك يوم الدين » . ويوم الدين هو يوم القيامة يوم الحساب

والجزاء على الأعمال . وليس يستعصى عليك ولا على الذين سلمت فطرتهم من آفات الهوى أن يؤمنوا بأن للأرض نهاية ، فإن علماء الهيئة يقولون : إن الأرض يتوقع لها الفناء من ثلاثة أسباب رئيسية : البرودة الذاتية ، وبرودة الشمس ، واصطدام الأرض بنجم ذى ذنب :

فأما البرودة الذاتية : فهى حادث طبيعى ذاتى طرأ على قشرتها الظاهرية لانفصالها عن الشمس ، وهو لا يزال عاملا فيها بغير جدال ؛ فإن أمر الأرض سينتهى ولو بعد ألوف من السنين بالبرودة المطلقة ، بحيث تتجلد بحارها وأنهارها وتصبح الجهات التى فى خط استوائها كالجهات التى فى قطبيها ، فلا يستطيع أن يعيش عليها حيوان ولا نبات .

وأما برودة الشمس : فأمر طبيعى أيضاً ؛ لأن الشمس لما كانت كتلة فى حالة التهاب فليس يُعقل أن حرارتها تدوم على طول الآماد ولابد من طروء البرودة عليها ، وإذ ذاك تموت جميع العوالم التى فى الكواكب الدائرة حولها .

وأما اصطدام الأرض بنجم ذى ذنب : فأمر عرضى لا يُعرف له قانون ، ولا ينتظر له ميعاد ، وليس يجهل أهل العلم فى مجموعتنا الشمسية عدداً لا يحصى من نجوم ذوات أذناب ، وهى كتل تختلف فى الأحجام مكونة من صخور ورمال تجر وراءها ذيلا من غاز على بعد عشرات ، بل مئات من الأميال !

وهذه النجوم لها مدارات مختلفة فى أشكال بيضية مستطيلة ، وكثيراً

ما تظهر فجأة بين الكواكب متبعة سيرا خاصاً يؤدى أحيانا إلى تصادم بينها وبين بعض تلك الكواكب : فإذا كان المذنب صغيراً ارتج بمصادمة ذلك الكوكب ، فحدثت عليه أحداث تختلف باختلاف قوة المصادمة ؛ وإذا كان كبيراً تفتت به ذلك الكوكب ، وتطايرت شظاياه فى الجو شذر مذر !

ولا ريب أن فى السماء قطعاً صغيرة سابحة فى الفضاء تقرب وتبعد من الأرض والكواكب الأخرى ، فتنجذب إليها إذا دخلت فى سلطان جاذبيتها ، وهى المسماة بالنيازك ، ويرجح أن هذه القطع إنما هى بقايا كوكب صادمه مذنب فحطمه .

وربما ذكروا — فى ترجيح — أن الطوفان الذى حدث فى الأرض فى عصر نوح فأطغى الماء على أكثر الأرض ، إنما هو نتيجة مصادمة مذنب للكرة الأرضية ؛ فعن تلك المصادمة حدث أن ارتجت الأرض ، واضطرب معها البحر ، وطغى على اليابسة .

* * *

تلك هى آراء العلماء الثقات فى أسباب فناء الأرض(١) .

وهنا يكون لنا أن نذكّر أولئك الذين يكفرون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر — أنهم واهمون فى جحودهم ربهم ، وأنهم ظالمون أيضاً لأنفسهم وللنوع الإنسانى كله معهم ، وهم يزعمون للناس أن

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين للعلامة محمد فريد وجدى .

الدين لم يكن وضعا إلهيا اقتضته رحمة الله للعالمين فإن الإنسان – كما يقرر ذلك العلامة السيد محمد باقر الصدر[١] – قد توصل إلى الإيمان بالله منذ أبعد الأزمان ، وعبده وأخلص له وأحس ارتباطا عميقا به قبل أن يصل إلى أية مرحلة من التجريد الفكرى الفلسفى ، أو الفهم المكتمل لأساليب الاستدلال . ولم يكن هذا الإيمان بالله وليد مخاوف أو شعور بالرعب تجاه كوارث الطبيعة وسلوكها المضاد . ولوكان الدين وليد خوف وحصيلة رعب – لكان أكثر الناس تدينا على مر التاريخ هم أشد الناس خوفا وأوضحهم هلعا ، مع أن الذين حملوا مشاعل الدين على مر الزمن كانوا من أقوى الناس نفوسا وأصلبهم أعوادا !

إن هذا الإيمان ليعبر أصدق تعبير عن نزعة أصيلة فى الإنسان إلى التعلق بخالقه ، ووجدان راسخ يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربه وكونه .

ذلك بعض ما ذكره العلامة الجليل « محمد فريد وجدى » فراجعه إن شئت .

ومهما تبجح الماديون المعاصرون فزعموا للناس أن الدين والعلم نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يتفقان – فإنهم أسارى نزوات ، ومطايا أهواء وشهوات ! ولا نحب أن نقول : إنهم ضحايا عمايات وجهالات من حيث إنهم قصروا الكون على المحسوسات ، وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيلاً ، فلا روح ولا خلود ولا ملائكة ولا شىء من العوالم الغيبية ، ثم

---

(١) راجع كتاب الفتاوى الواضحة .

تصوروا الدين على الصورة التى رأوا عليها بعض المتدينين من الخلط والخبط والبعد عن العقل ، فحكموا على الدين من هذه الزاوية ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ! ولو أنهم أنصفوا كما أنصف كثير من أهل العلم فى هذا العصر ، ووقفوا على ما فتح الله به على العالم العصرى من الحجج العيانية فى إثبات عالم ما وراء المادة – لكان ذلك أخلق بطلاب الحق .

* * *

ثم إنهم لو نظروا للدين فى أصله وينبوعه وعلاقته بالروح الإنسانى نظر الحكيم المتبصر – لعلموا أنهم فى أحكامهم غلاة مفرطون ، ولأصبحوا من أعز أبناء الدين ؛ كما يصبح اليوم كذلك كثير من علماء الماديين . ولسنا باليائسين من رجوعهم عن غيهم ؛ فقد رجع من هو أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين .

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين ، يسلم بهذه الحقيقة من يعرف كنه الدين ، فيحدده بأنه مجموع العقائد التى يتلقاها الإنسان عن أمه وأبيه ، وينقشها فى ذهنه معلمه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذى يعيش فيه تشبثا به . ولقد ثبت بالأدلة الحسية أن وراء هذا العالم المادى عالما روحانياً أرقى منه ، لابد أن تنتهى النفوس إليه بعد الموت ؛ كما ثبت أن النواميس الطبيعية يمكن أن تتخلف عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها . وقد أثبت العلم الغربى الآن أن معجزات الأنبياء كلها صحيحة .

إن الإنسان – بلا ريب – مرتبط بالعالم الروحانى صلاحا أو فسادا : بمعنى أن كل فرد منا معرض لتأثير الكائنات الروحانية سواء العلوية منها والسفلية : فالسفلية تستولى عليه بالوسوسة والإغراء ، والعلوية تمحضه النصح والإرشاد ، وهو بينهما فى حال من التنازع يتأدى فى نهايتها إلى ما قدر له من خير أو شر .

تلك أصول أثبتها العلم العصرى ؛ كما يقرر ذلك الأستاذ وجدى رحمه الله ورضى عنه .

ولست ترتاب فى أن من يعتقد أن العالم الروحانى ليست له مندوحة عن الاعتقاد بالألوهية وبالروح وبالبعث . وأن من يعتقد الخوارقَ ليست له مندوحة عن الاعتقاد بالأنبياء والرسل . وأن من يعتقد بارتباطه بعوالم الغيب ليست له مندوحة عن الاعتقاد بضرورة الكمال الخلقى .

ولسنا نعرف منهاجا أدعى إلى الكمال الخلقى من الدين الذى جاء به الأنبياء والمرسلون ، وهو يتغيا أموراً خمسة يحترمها أشد الاحترام ويحرص عليها أبلغ الحرص وهى : تقديس النفس والمال والنسب والعقل والدين ؛ فليس يسوغ لذى دين أن ينتهك حرمة من هذه الحرمات الخمس التى يقرر علماء الفقه الإسلامى أنها الكليات الخمس التى أوجب احترامها كلُّ دين كتابى ، وحرص على التزامها كلُّ رسول من عند الله وفى ذروتهم العليا محمد عبد الله ورسوله وخاتم الأنبياء والمرسلين .

وليس يجمل بك أن ترتاب فى أن رعاية هذه الحرمات الخمس هى

الثمرات الشهية للإيمان بالله والاعتزاز بشعائر الدين . وليس يجمل بك أيضاً أن ترتاب فى أن رعاية هذه الحرمات هى وحدها القادرة على أن تهب للمجتمع الإنسانى الأمنَ والسكينة والسلام .

وإذا كان التنكر للإيمان نذيراً بشر ألوان القلق فى الاجتماع الإنسانى فإن الهشاشة له والانبساط إليه والدأب على دعم قواعده — بُشْرَاء بالخلوص إلى السكينة والظفر بالأمن والاطمئنان إلى السلام .

وما دمت قد رأيت أن عودة الإيمان نعمة — فإن عليك أن ترى أن كل نعمة تقتضى حقها من عرفان قدرها ومهد السبيل بين يديها إلى البقاء والنماء .

والمعنى الفارد بالقدرة على القيام بحق هذه النعمة الجليلة — هو أن يتعاون المواطنون الصادقون على أنَ يقُوا شعبهم وأمتهم من نزغات الإلحاد ونزوات الملحدين ، ثم أن يضعوا المؤمنين بمنجاة من كل ما يصدع صفهم ، ويزعزع إيمانهم بوطنهم ، وذلك لا يستجيب لرائديه إلا من خلال تزويد الشعب بما يشبع حاجاته ويرضى مطامحه ، ويشعره بأن الإيمان شجرة شهية الثمار وارفة الظلال يفىء إليها كل من جهدته الحياة ، ورهقته مشاق الطريق ، وإلا كان الإيمان الذى فرح له شعبنا ، واستبشرت به أمتنا — كلمة مقولة لا تستدفع أتيّا ، ولا تستجلب أبيا ! وكان الدعاة إلى الفرحة بالإيمان والاعتزاز به أدعى إلى السخرية منه والتجهم له أو

التهجم عليه !

ومبلغ علمى أن على الدولة فى عصرنا الحديث وفى كل عصر يجىء — أن تستمد نظمها الاجتماعية والاقتصادية من روح الإسلام ، وهذه النظم تتمثل فى أمور ثلاثة سبقنا إليها الغرب المؤمن بها وكنا أحق منه بالسبق إليها :

وأول هذه الأمور : احترام الحرية الكاملة التى تعبر عنها فى عصرنا الحديث كلمة (الديمقراطية) .

وثانيها : التمكين لسلطان العدالة الاجتماعية فى حدود تأمين المواطن على حياته ، وتوفير أسباب الغذاء والكساء والدواء له .

وثالثها : العمل الدائب المستبصر على الاعتزاز بالوطنية الإقليمية فى إطار الحرص على الروابط العربية كائنة ما كانت عروبتنا ، عروبة عرق أو عروبة لغة أو عروبة دين ؛ فإن فى ذلك الاتجاه وحده ما يربط الحاضر المجاهد إلى الماضى الماجد ؛ لننطلق بذلك ومن ذلك إلى مستقبل كريم منشود .

والله تعالى نسأل من فيض فضله وعظيم رحمته أن يرزقنا قوة الإيمان به وحسن الثقة فيه وجميل التوكل عليه ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

فهرس

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د . محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف

٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د . أحمد الحوفى
٢٤ – المكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د . سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د . إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د . على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الإجتماع	د . فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د . كمال الدين سامح
٣٠م– محمود حسن اسماعيل	د . عبد العزيز الدسوقى
٣١ – الغلاف الجوى	د . يوسف عبد المجيد فايد
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د . مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون

الكتاب القادم

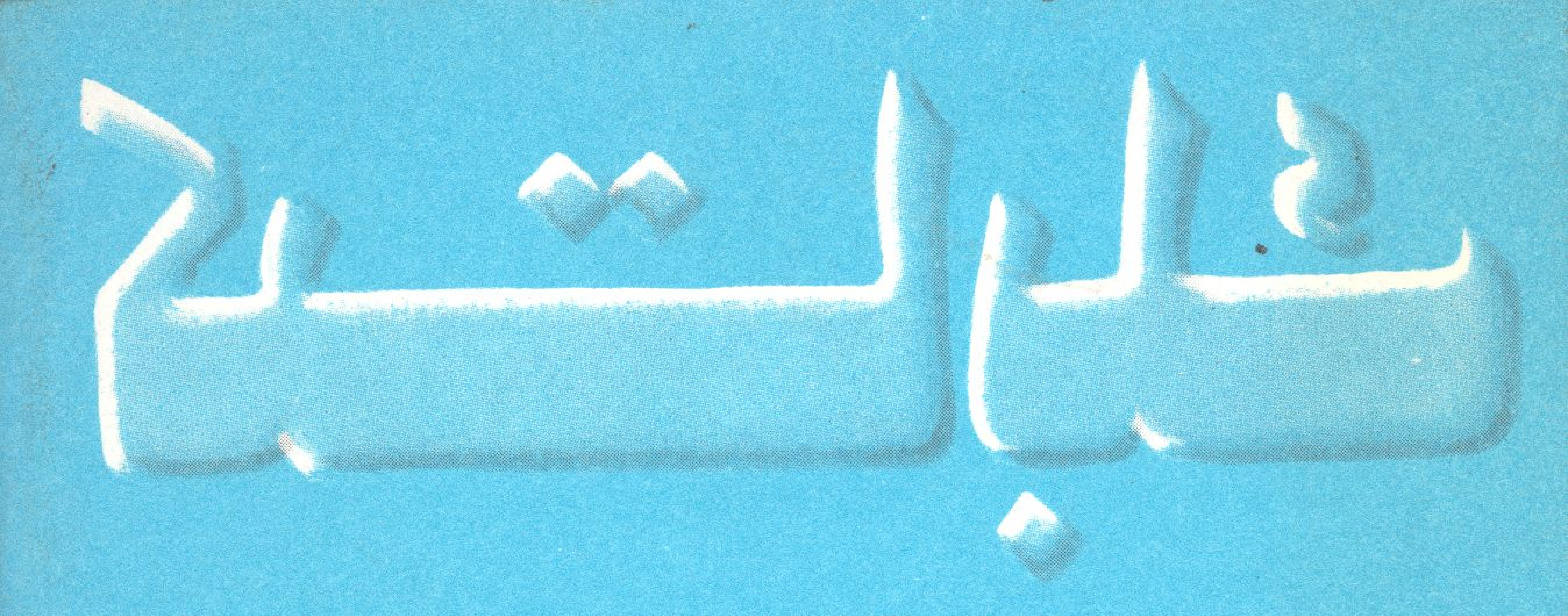
الصحافة مهنة ورسالة

د. خليل صابات

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٧١٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٦٣ - ٢

٨٢/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

إن الحديث عن الإيمان يعتمد – أول ما يعتمد – النظر إلى قضية الوجود الإلهى . إذ كان الإيمان بالخالق الأزلى الأبدى الغنى عما سواه هو المحور الذى تدور عليه كل الفضائل وكل الآداب التى [illegible] رسل الله وأنبياؤه . . وفى [illegible] وعيسى ومحمد عليهم السلام [illegible]

وهذا فيض من الإيمان [illegible] ثمرات البحث فى وقت نتطلع [illegible] إلى منابع الإيمان الكامل [illegible]

١٠ جـ